الرسالة

(٢ تيموثاوس ٣: ١٠–١٥)

يا ولدي تيموثاوس إنَّك قد استَقَرَيْتَ تعليمي وسيرتي وقصدي وإيماني وأناتي ومحبَّتي وصبري* واضطهاداتي وآلامي وما أصابني في أنطاكيةَ وإيقونيةَ ولِسترة. وأيَّةَ اضطهاداتٍ احتملتُ وقد أنقذني الربُّ من جميعها* وجميعُ الذينَ يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيحِ يسوعَ يُضطهَدون* أمَّا الأشرارُ والمغوونَ من الناسِ فيزدادونَ شرًّا مُضِلّينَ ومُضَلّين* فاستمرَّ أنت على ما تعلَّمتَه وأيقنتَ به عالِماً مِمَّن تعلَّمت* وأنَّك منذ

الإتّضاع والإرتفاع

تبدأ اليوم فترة التهيئة للصوم الأربعينيّ الكبير المقدّس بقراءة إنجيل الفرّيسيّ والعشّار. تريد كنيستنا المقدّسة، من خلال هذا النصّ الإنجيليّ، أن تذكّرنا بأنّ هدف الصوم هو التواضع وإذلال النفس حسب قول داود النبيّ: «أذللت بالصوم نفسي» (مز ٣٥: ١٣). لا تعني عبارة «إذلال النفس» أن نحتقر أنفسنا، لكنّنا نبتغي أن نتتعلّم، في الصوم، كيف نتواضع لنكتسب ثمار التواضع.

يحدّد لنا ربُّنا ما علينا تعلّمه من مثل الفرّيسيّ والعشّار إذ يقول: «كلّ من رفع نفسه اتّضع ومن وضع نفسه ارتفع» (لو ١٨: ١٤). مَن يريد أن يحيا حياةً روحيّة سليمة، عليه أن يكون في يقظة دائمة، وأن يتأمّل بالحكمة الإلهيّة التي تفوق حكمتنا الأرضيّة. حسب الحكمة البشريّة، فإنّ طريق الارتفاع هي الصعود، لكنّ الحكمة الإلهيّة تقول إنّ طريق الارتفاع هي النزول، فكيف نوفّق بين فكرنا وكلمة الرّبّ؟ في الواقع، يجب أن تصبح أفكارنا هي أفكار الله لنفهم كلمات الرّبّ ونكون مستعدّين أن نحيا بها، لأنّ فيها صعوبةً، إذ تناقض أحيانًا كثيرة كلَّ معقولنا الأرضيّ، وتخالف منطقنا البشريّ. فلنحاول أن نفهم، من خلال كلمات الإنجيل، كيف يقتضي منّا الارتفاع نحو الله انحدارًا.

العدد ٢٠٢٠/٦

الأحد ٩ شباط

أحد الفرّيسيّ والعشّار

تذكار القدّيس نيكيفوروس الشهيد

اللحن الأوّل

إنجيل السَحَر الأوّل

يتحدّث الإنجيل عن رجلَين، ولا يذكر سوى أنّ واحدًا كان فرّيسيًّا، أي كان في نظر الناس عائشًا بحسب شريعة الله، تاليًا بحسب المشيئة الإلهيّة، والثاني كان عشّارًا، أي كان في نظر الناس عائشًا بحسب الخطايا التي تناقض المشيئة الإلهيّة. صعد هذان الرجلان إلى الهيكل ليصلّيا، والصعود الجسديّ هو إشارة إلى رغبة في الارتفاع نحو الله، مزروعة داخل قلوب كلّ الناس، وهي شوق إلى لقاء الخالق والعيش بحسب ما يرضيه. كلُّ إنسان يشعر بحضور الله يوجد داخله توقٌ إلى لقاء الله، لأنّ الصورة الإلهيّة المزروعة فينا

منذ الخلق تتوق إلى مثالها الذي هو الخالق، لكنّ الإنسان غالبًا ما ينخدع بالمنطق البشريّ الذي يستغلّه الشرّير ليبعدنا عن تحقيق هدفنا الأسمى، أي الاتّحاد بالربّ.

يقول لنا عقلنا إنّ طريق الارتفاع هو الصعود. لكن، قد يسقط الإنسان، وهو صاعدٌ، في ما هو أساس كلّ الشرور، أي الكبرياء التي تؤدّي إلى كلّ ما يبعدنا عن الله. كان الفرّيسيّ يحاول فعل كلّ ما يمكن أن يقرّبه إلى الله، لكنّه رفع نفسه في قلبه، وتعالى على الآخر، فكان سقوطه في الكبرياء عظيمًا، ولم يتبرّر أمام الله رغم كلّ المجهود الظاهر الذي بذله. في المقابل، أخطأ العشّار كثيرًا في حياته، وارتكب أمورًا كثيرة تُبعد الإنسان عن الله، وتحدره إلى الجحيم، لكنّ قلبه تحرّك نحو التوبة، في وقت ما، وتقدّم إلى الله بانسحاقٍ معترفًا بخطاياه التي تجعله غير مستحقّ النظرَ إلى الله. كان متواضعًا في قلبه، وجعل نفسه أسفل قائمة الناس، ونتيجةً لذلك رجع إلى بيته مبرَّرًا. المنطق البشريّ يقول إنّ علينا السعي لنكون أفضل من الآخرين، لكنّ المنطق الإلهيّ يريد أن نذلّل أنفسنا بالتواضع والصوم والجهاد والتوبة، وأن نعتبر أنفسنا أسوأ الكلّ، عندئذٍ يرفعنا الربّ إليه.

مهما عظم شأن الإنسان، لا يستطيع الوصول إلى الله بقدرته الذاتيّة، فالعظَمة الحقيقيّة هي في القدرة على التواضع. هذا ما أعلنه الله لنا حينما انحدر ابنه الوحيد الكلّيّ القدرة، من عرش مجد ملكه إلى أرضنا المتواضعة، وتجسّد آخذًا صورة عبدٍ، وهو السيّد، وحُسب بين الخطأة وهو القدّوس، واقتبل الإهانة من عبيد وهو مصدر وجودهم، ثمّ مات صلبًا مع كونه عادم الموت، ونزل إلى أقصى دركات الجحيم ليحقّق لنا الخلاص وينهضنا معه بقيامته ويرفعنا بصعوده ويُجلس طبيعتنا البشريّة عن يمين الآب. إذًا، ربُّنا بحكمته الإلهيّة ومحبّته غير المتناهية، أرانا الطريق التي علينا سلوكها بدورنا، طريق التواضع التي يرفضها المنطق البشريّ، لكنّها تؤدّي فعلًا إلى الارتفاع، على خلاف طريق الافتخار والكبرياء التي تؤدّي إلى الانحدار. دعوتنا، في أحد الفرّيسيّ والعشّار، ألّا نهمل التوق الذي في قلوبنا إلى الارتفاع نحو الله، لكن في الوقت ذاته ألّا ننخدع من الشرير ونسعى إلى الارتفاع بقوّتنا الذاتيّة، مثلما حصل مع آدم وحوّاء عندما سقطا في الفردوس قديمًا. فلنتذلّل أمام الله متّضعين، ولنكن محبّين للجميع، حتى للّذين قد يظهرون أشرارًا أو ضعفاء في عيون الناس، والله الكلّيّ القدرة، عندما يرى تواضعنا ومحبّتنا، سيرفعنا بيمينه العزيزة الكلّيّة الاقتدار، ويجعلنا وارثين لملكوته السماويّ الذي لا يزول.

القدّيس ملاتيوس الأنطاكيّ

تعيّد كنيستنا المقدّسة في ١٢ شباط للقدّيس ملاتيوس الأنطاكيّ الذي يُعتبر مِنَ الذين طبعوا تاريخ الكنيسة بمواقفهم وثباتهم وحرصهم على رعيّة المسيح.

الطفوليَّةِ تعرِفُ الكتبَ المقدَّسةَ القادِرةَ أن تُصيِّرَك حكيماً للخلاصِ بالإيمانِ بالمسيحِ يسوع.

الإنجيل

(لوقا ١٨: ١٠–١٤)

قال الربُّ هذا المَثَل. إنسانان صعِدا إلى الهيكل ليُصلِّيا أحدُهما فرّيسيٌّ والآخرُ عشَّارٌ* فكان الفرّيسيُّ واقفاً يصلّي في نفسه هكذا: أللَّهمَّ إنّي أشكركَ لأنّي لست كسائر الناس الخَطَفةِ الظالمين الفاسقين ولا مثلَ هذا العشَّار* فإنّي أصوم في الأسبوع مرَّتين وأُعشِّرُ كلَّ ما هو لي* أمَّا العشَّار فوقف عن بُعدٍ ولم يُرِدْ أن يرفعَ عينيه إلى السماء بل كان يقرعُ صدره قائلاً: أللَّهم ارحمني أنا الخاطئ* أقول لكم إنَّ هذا نزلَ إلى بيته مُبرَّراً دون ذاك. لأنَّ كلَّ مَن رفع نفسه اتَّضع ومَن وضع نفسه ارتفع.

تأمل

يتحرّر الإنسان عندما يتواضع، أمّا عندما يميل إلى الإعجاب بالذات وحبّ الظّهور فإنّه يُكبَّل بقيود العبوديّة والسبي والاعتقال، فيخرج من الحقيقة ويسير في مجال الكذب. في اللحظة التي يتواضع فيها يشعر بالتحرّر من تلك القيود.

إذا تواضع الإنسان المسيحيّ الذي قرّر أن يصير لله ويصبح إنسانًا روحانيًّا، يبدأ برؤية ذاته بشكل صحيح، فيعرّي داخله ويظهره بوضوح من دون أن يحاول التّبرير، ولا يقوم بأيّ محاولة لإعطاء صورة حسنة عن نفسه.

رجل الله هو الذي تعمّق في الأمور بانتباه وعرفها جيّدًا، إذ أدرك حقيقة وضعه ووصل إلى النتيجة التالية: «ماذا ينتظر الله منّي أنا القذر؟». لا يقول ذلك بشفتيه، لكنّه يحيا هذا الواقع ويترك كلّ شيء بين يدي الله. يقوم

وُلد قدّيسنا في الربع الثاني من القرن الرابع، في مدينة ملتيني التابعة لأرمينيا. كانت أسرته من أشرف أُسَر تلك البلاد وأصدقها في الإيمان، فنشأ على الفضيلة وتثقّف عقلُه بالعلوم. وقتئذٍ، كانت بدعة آريوس متغلغلة في أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة، رغم محاربتها من قِبَل كبار آباء الكنيسة الأرثوذكسيّة.

عام ٣٥٨، فرغ كرسيّ سبسطية، فانتخب الآريوسيّون المعتدلون ملاتيوس، رغم حداثة سنّه، ظانّين أنّه يوافقهم إيمانهم. هناك، واجهته مضايقات كثيرة بسبب تعلّق المؤمنين بأسقفهم السابق إفستاثيوس، الأمر الذي دفعه إلى مغادرة سبسطية نحو ضواحي حلب، حيث عاش حياة النُّسك.

عام ٣٦٠، إلتأم مجمعٌ في القسطنطينيّة لإيضاح بعض الأمور العقائديّة، وانتخبوا أسقف أنطاكيا إفذوكسيوس بطريركًا على القسطنطينيّة. انتُخب مكانه ملاتيوس، الذي دخل أنطاكيا شتاءَ العام ٣٦٠، حيث استقبله المسيحيّون واليهود على حدّ سواء بحفاوة بالغة. تسلّم عصا الرعاية في حضور الإمبراطور قسطنديوس، وأسقف قيصريّة فلسطين أكاكيوس، وأسقف الإسكندريّة جاورجيوس. إلّا أنّ الإمبراطور أراد استيضاح موقف القدّيس ملاتيوس العقائديّ، فأشار إلى الأساقفة الثلاثة أن يشرحوا الآية الواردة في سفر الأمثال: «الربّ قناني أوّل طرقه من قبل أعماله منذ القديم» (٨: ٢٢). أبدى الأسقفان أكاكيوس وجاورجيوس رأيهما، وعندما حان دور القدّيس ملاتيوس، أظهر معرفة عميقة للكتاب المقدّس. إنطلق من التأكيد على أنّ الكتاب المقدّس لا يناقض نفسه، كما أنّ استخدام اللّغة بدقّة ضروريّ عند شرح طبيعة ابن الله الوحيد، لذا علينا توخّي الدقّة في مقاربة الأمور، حتّى ننتقل من الأمور المنظورة إلى غير المنظورة. أن نؤمن بالمسيح يعني أن نؤمن بأنّ الابن هو شبيه أبيه، إنّه صورته، هو الذي في كلّ شيء وهو خالق الكلّ. هذه الصورة كاملة ودقيقة ولا يشوبها عيب. تحمل ولادةُ الابن قبل الزمن مبادئَ الوجود والثَّبات والفرادة. بعد ذلك، إنتقل القدّيس للكلام على الاعتبارات الأخلاقيّة الواجبة لحياة كلّ مؤمن، مبتعدًا عن التعابير التقنيّة التي تثير المجادلات العقائديّة. عندما طُلب إليه أن يوجز موقفه رفع ثلاثة أصابع ثمّ ضمّ اثنين منها وقال: «نفكّر ذهنيًّا بثلاثة أشخاص، لكنّنا نخاطبهم كأنّهم شخص واحد». موقفه العقائديّ هذا كان صفعة للآريوسيّين الذين اعتقدوا بأنّه موالٍ لهم، فسعوا إلى نفيه، محقّقين ذلك بعد فترة وجيزة من تسلّمه رعاية كنيسة أنطاكيا.

كابد القدّيس ملاتيوس النَّفي ثلاث مرّات، نتيجةً لتعاقب الأباطرة الرومان على الحكم. كما واجه انقسامًا داخليًّا، إذ انقسم أرثوذكسيّو أنطاكيا إلى جماعتَين: جماعة ملاتيوس وجماعة باولينوس. انتُخب باولينوس أسقفًا على أنطاكيا بعد نفي ملاتيوس في المرّة الأولى. رغم عودته، ظلّ باولينوس وجماعته يشكّون في صحّة إيمان ملاتيوس،

خصوصًا أنّ مَن انتخبه كان آريوسيًّا. أيضًا، ظلّ باولينوس متمسّكًا بمركزه رغم إيضاح ملاتيوس موقفَه العقائديّ وعقده مجمعًا دعا فيه أساقفة الشرق ليؤكّد على الإيمان الأرثوذكسيّ المعلَن في دستور إيمان المجمع المسكونيّ الأوّل.

من ناحية ثانية، دعمت كنيستا الإسكندريّة وروما الأسقف باولينوس، مشكّكتَين بصحّة إيمان ملاتيوس. سعى القدّيس باسيليوس الكبير، الذي كان على بيّنة من أرثوذكسيّة ملاتيوس، وكان يجلّه كثيرًا، إلى رأب الصَّدع بين الكنيستَين المذكورتَين وباولينوس من جهة، وبين ملاتيوس من جهة أُخرى. لذا، أرسل القدّيس باسيليوس، شمّاسه في جولات مكّوكيّة متنقّلًا بين قيصريّة وأرمينيا والإسكندريّة وروما، إلّا أنّ مساعيه باءت بالفشل.

بعد استلامه الرّعاية، بادر ملاتيوس إلى تعليم شعبه وإصلاح بعض الانتهاكات في حياة الجماعة، وحاول ألّا يثير المباحثات العقائديّة في تعليمه، فكان يشدّد على كيفيّة الحياة في المسيح، جاعلًا هدفه الوحيد العناية بالنفوس، ليقودها إلى الخلاص بمثله الصالح وفصاحة كلامه. أثّرت طريقته هذه في رعيّته، فكانت كلّ عائلة تطلق اسمه على أحد أبنائها، إضافةً إلى حفر صورته على الخواتم والأواني المنزليّة وجدران المنازل. أحد أشهر تلاميذه كان القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم الذي اعتمد على يديه، وقد قال فيه: «إنّ التمتّع بالنظر إلى تلك الهيئة المقدّسة (هيئة ملاتيوس) كان غذاءً عظيمًا للنَّفس، لأنّه ليس بتعليمه وحده، وبكلامه، لكن مجرّد النَّظر إليه كان كافيًا لأن يعلّم كلّ فضيلة ويدخل الراحة إلى كلّ نفس».

عام ٢٨١، دعا الإمبراطور إلى عقد مجمع مسكونيّ في القسطنطينيّة، حضره ١٤٨ أسقفًا، بينهم القدّيسون ملاتيوس الأنطاكيّ وغريغوريوس النزينزيّ وكيرللّس الأورشليميّ. تولّى القدّيس ملاتيوس رئاسة المجمع، لكنّه رقد قبل انتهاء الأعمال، فتولّى القدّيس غريغوريوس النزينزيّ الرئاسة بعده. أُقيمت له جنازة جليلة ومؤثّرة، حضرها الإمبراطور نفسه وأبّنه أفصح الخطباء. ممّا قاله القدّيس غريغوريوس النيصصي عنه: «كيف أضطرّ لساني على حَبْكِ الكلام وقد قيّدته المصيبة كالسلسلة؟ كيف أفتح فمي وقد أطبقته الدهشة؟ كيف أحدّق بعين النفس وأنا مغلّف بحلك الأهوال؟ أين شراعنا المجيد الذي كان يسير بهدي الروح القدس؟ أين ثبات العقيدة الذي كنّا نلجأ إليه واثقين؟ أين القبطان الحكيم الذي كان يقود السفينة إلى الهدف الأسمى؟ فافقهوا أيّ رجل هذا: جليل من مشارق الشمس، صدّيق بلا لوم، تقيّ مائل عن كلّ أمر رديء». بعد ذلك نُقل جثمانه إلى أنطاكيا، حيث أقيمت له جنازة مهيبة، ووُضع بقرب سلفه القدّيس بابيلا.

للإطلاع على أخبار الأبرشية:
www.facebook.com/metbei

بإنجازات كثيرة عندما لا يظنّ بأنّ عنده الكفاءة. لكنّ الله يأخذه، بما أنّه إنسان حيّ وعضوٌ لله، على عاتقه ويتصرّف هو نفسه به.

لا ينجرح المتواضع أبدًا، إذ لا يؤثّر فيه أي شيء، ولا يشعر أبدًا بأنّه مقيّد وتحت ضغط ليقذف بنفسه في إحدى الزّوايا متذمّرًا، لكنّه يكون مستعدًّا دائمًا ليقول: «هأنذا يا ربّ»، وليكون متجاوبًا مع الله ومع الجميع. بعد ذلك، يبتعد عن الخطيئة لأنّه يحيا مع الله في انتباه ويقظة مستمرَّين، ويتواضع مدركًا أنّ الله هو سبب كلّ خير وأنّ كلّ شيءٍ هو بين يديه، فلا يتألّم أو يتعذّب أو يضايق الآخرين. موقف المتواضع هذا يمكنه أن يبدّل وضع الجماعة ويحسّن الأمور الحياتيّة المعاشة يوميًّا.

الأرشمندريت

سيميون كرايوبولُس